المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الاربعون

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩١٢ — الموافق ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٣٠

خلع عبد الحميد

شوكت باشا قامع الفتنة

شبه المستر مكلاً شوكت باشا بكرومول الذي قلب الحكومة الانكليزية منذ ٢٦٠ سنة وشكر جمعية الاتحاد والترقي لانها عرفت قيمة هذا القائد العظيم وقدرته قدره حينما كان اسمهُ غير معروف . وقال ان كل رجال تركيا الفتاة مجمعون على انهُ لو لم يسرع بالتيلي الثالث الى الاستانة لاستردَّ عبد الحميد سلطتهُ الاولى . واورد قول ابي الضياء توفيق وهو انهُ لو تأخرت سلانيك مهد الحرية عن المبادرة لقمع الفتنة لقضي على الحكومة الدستورية . ولم يكن اسم محمود شوكت باشا معروفاً بالامس لكنهُ يزهر اليوم انهُ رجل نعَّال وانهُ من امهر قواد الجيش ولا يخشى من ان يتحمَّل كل مسؤولية . والذي انقذ الدستور من الالغاء هو سرعة اجتماع الجيش وزحفهِ على الاستانة وروح الغيرة والبسالة التي بثها القائد العام في صدور رجاله . وهذا رأي كل الثقات في علم الحرب من الاوربيين

ومن رأي المؤلف انهُ لو لم يزحف شوكت باشا بنفسهِ لانقاذ الاستانة والدستور بل ارسل بعض قوادهِ لوقعت الخلافة بينهم وعجزوا عن ادراك الغاية التي سعوا لاجلها وكذلك لو لم يأتِ هو بالسرعة التي اتى بها لالتفَّ كبار رجال الحكومة حول عبد الحميد وعادوا طوع بنانهِ كما كانوا قبل اعلان الدستور . ثم ذكر ترجمة شوكت باشا وهذه خلاصتها

ولد سنة ١٨٥٧ وابوهُ كتخدا زاده سليمان بك والي البصرة وسنة ١٨٧٠ جاء الاستانة ودخل المدرسة الابتدائية في اثلامه طاش بامكدار ثم دخل المدرسة الحربية في قله لي وانتقل منها سنة ١٨٧٨ الى المدرسة الحربية العليا واتمَّ دروسهُ فيها وخرج منها سنة ١٨٨٢ برتبة يوزباشي اركان حرب وكان الاول في صفهِ (فرقته) وبعد قليل أرسل الى كريت

ليرافق الجيش الذي كان يراد ارساله الى مصر لقمع الثورة العرابية وبقي سنة في كريت وعاد منها الى الاستانة حينما عدلت الدولة العلية عن ارسال جنودها الى مصر

وبعد قليل جُعل استاذاً في المدرسة الحربية العليا لتعليم علم الجبر والمقابلة ثم لتعليم علم اطلاق المدافع. ثم عُين باشارة الجنرال فون درغلتز من اللجنة الموكول اليها استلام ما ابتاعته الحكومة من بنادق موزر بعد ان يراقب عملها في معامل المانيا فذهب الى المانيا لهذه الغاية واقام فيها وفي وفرنسا تسع سنوات قضى للحكومة العثمانية في خلالها اشغالاً كثيرة تناطتها به لتعلق بابتياع المدافع والبنادق والبارود وعكف على درس المسائل الحربية بين باب علي. وعاد من المانيا سنة ١٨٩٦ بداعي انحراف صحته ورقي حينئذٍ الى رتبة امير لواء وكان الدرس الكثير قد اضعف اعصابهُ فمنعهُ الاطباء عن كل عمل يقتضي تشغيل العقل ولذلك لم يشترك في حرب اليونان

وسنة ١٩٠١ أُمر بمد سلك التلغراف بين مكة والمدينة فأُرسل الى الحجاز في السفينة العثمانية مرمرة وكان فيها ستمئة من المغضوب عليهم وأُمر ان يودعهم في السجون الحصينة في بلاد العرب فأثر فيهِ منظر اولئك الرجال وحديثهم تأثيراً عميقاً وكان احترامهُ للسلطان قد ضعف بما شاهدهُ في فرنسا والمانيا ثم رأى من تعصب رجال الدين ومقاومة شريف مكة ووالي الحجاز ما منعهُ من مد السلك التلغرافي فعاد الى الاستانة وهو غير ناسٍ ما شاهد في السفينة وما لقي في الحجاز

وعين سنة ١٩٠٦ والياً لقونيه وبقي فيها هذا المنصب حتى اغسطس سنة ١٩٠٨ وقيل عنهُ حينئذٍ انهُ شجاع ولكنهُ لا يصلح للولاية لانهُ حليم كأن الحلم والولاية لا يجتمعان. وكان يرى سوء ادارة البلاد ولكنهُ لا يرى علاجاً لهُ فتولاهُ اليأس. وكانت لدتهُ الكبرى في مقابلة الاوربيين ومحادثتهم في المواضيع التي كانت المحادثة فيها مباحة وهي العلوم والآداب والمسائل الحربية

ولما استدعي حلمي باشا من سلانيك ليتولى نظارة الداخلية جُعل شوكت باشا مفتشاً عاماً في مكدونية وبقي في منصبهِ في الجيش فتمرَّن على الادارة تمرُّناً يؤهلهُ للوزارة يوماً ما

وكان من رجال تركيا الفتاة فلما نشرت راية الحرية ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ كان اول من حيَّاها في اسكوب واقتدى بهِ كل وجهاء البلاد وبلغ خبر اسكوب سلانيك فاقتدت بها. واستدعتهُ الحكومة الجديدة في اغسطس لتيادة الفيلق الثالث في سلانيك وبقي من ذلك الحين الى شهر ابريل وهمهُ الاكبر اصلاح شؤون ذلك الفيلق وبث الحمية والغيرة

الوطنية في نفوس رجاله وضباطه وهذا الذي ساعده على دخول الاستانة بعد ذلك وتخليص الحكومة الدستورية من الزوال

وقد حادث المؤلف شوكت باشا في كيفية زحفه على الاستانة فقال له ما ترجمته

« اني لم اسمع عن وقوع الفتنة في استانبول الاَّ في ١٤ ابريل فارسلت تلغرافاً الى الاستانة احتجّ فيه باسم الفيلق الثالث وارسلت التلغرافات اللازمة الى الاورط التي عوّلت على الزحف بها على العاصمة . وبلغني في المساء ان الضباط الذين تحت امري اجتمعوا في النادي العسكري فذهبت اليه لكي اخبرهم بما عوّلت عليه ولكي انصحهم حتى يلزموا السكينة وقلت لهم ان التلغرافات التي وردت من الاستانة تدلّ على ان الاستبداد قد عاد الى نصابه فاذا كان الامر كذلك فالحكومة لم تعد شرعية في نظري ولقد قلت لذوي الامر في العاصمة انهُ اذا صحت الاخبار التي بلغتني فالفيلق الثالث يزحف على الاستانة بكل قوته حالاً لكي يزيل العار عن شرفنا العسكري الذي لطخهُ به فتنة ١٣ ابريل ولكي يعيد الدستور العثماني معاً كلفنا ذلك . وقد اصدرت كل الاوامر اللازمة للزحف وانا مستعد ان أُنفق وأُنفق في هذا السبيل واتوقع منكم الطاعة التامّة لكي نفوز بالنجاح . ولما قلت ذلك اقسم لي الضباط كلهم ان يطيعوني طاعة تامّة . ويا لها من ساعة لا يزول ذكرها من نفوسنا »

فسألتهُ هل كان كلامهُ للضباط حينئذٍ اول كلام قيل في هذا الموضوع فقال نعم وطبع كلامي حالاً ونشر في البلاد كلها

وقد ذكرت الجرائد خطبة شوكت باشا هذه وقالت انها قريدة في بابها اثّرت في السامعين تأثيراً عميقاً فصفقوا لها تصفيقاً حاداً ولا غرابة في ذلك لانها كانت بثابة اعلان الحرب على عبد الحميد بل على مَن هو اضر بالبلاد من عبد الحميد اي على الذين يحاولون ان يقوّضوا اركان الدستور باسم الشريعة . وقد كان كلام شوكت باشا ورجاله صريحاً في هذا المعنى فقد قال الجنرال حسين حسني باشا قائد مقدمة الجيش المكدوني في المنشور الذي نشرهُ على اهل الاستانة « ان غرض الجيش الذي زحف على الاستانة هو ان يثبت لهم انهُ لا يعرف شريعة فوق الدستور ولا سيادة فوقهُ »

ولم يكد شوكت باشا يهدّد الاستانة بالزحف عليها حتى انتشر خبر تهديده بواسطة التلغراف في السلطنة كلها . ونشرت جريدة نيّر حقيقت تلغرافهُ فوقع في الاستانة كالصاعقة والحال جعل يعدُّ جيشهُ للزحف . وقالت جريدة التيمس حينئذٍ انهُ يتعذّر عليه الزحف في اقل من ثلاثة اسابيع وانهُ اذا بلغ الاستانة فادهم باشا وناظم باشا لا يلبثان جنود

سلانيك تصل الى حدود الاستانة . ولكن شوكت باشا وصل في ثلاثة ايام بدل ثلاثة اسابيع ولما وصل لم يجسر ادهم باشا ولا ناظم باشا ان يصداه . ويتعذر وصف هذا العمل الخارق الذي عمله شوكت باشا الا على كبار رجال الحرب الخبيرين بالحركات الحربية . والظاهر انه لم ينتظر اقرار رجاله على الزحف بل ارسل بعض الجنود امامه حالما بلغه خبر الفتنة

ولا شبهة في ان زحف شوكت باشا كان نوعاً من المجازفة حسب الظاهر ولذلك لا نعجب من تحطئة جريدة التيمس له . ولكنه لم يجازف بل تحوط للامر من كل وجوهه كما يفعل كل القواد العظام . ورأى ان لا بد له من ان تكون مقدمة جيشه وجناحاه بأمن من كل عدو مفاجئ فاتفق مع قبائل الارناؤوط بواسطة نيازي بك ومع العصابات اليونانية والبلغارية واستخدم ثلاثة آلاف متطوع منهم في جيشه مع انه كان في غنى عنهم فاعرب بذلك عن تسامحه الديني وبُعد نظره في العواقب لانه لو تركهم وراءه ومكدونية خالية من الجيش المنظم خلا الجو لهم واوقعوا بالبلاد ولان استخدامهم في انقاذ الاستانة والدستور يرضي اليونان والبلغار في السلطنة العثمانية واليونان والبلغار في بلادهم

وقد قال المؤلف في هذا الصدد ما ترجمته . « لما كنت على اهبة الزحف على الاستانة تقدم اليّ عشرة آلاف من البلغار وثلاثة آلاف من اليونان متطوعين ولكني خفت ان استخدمهم كلهم فيحدثوا في الاستانة حدثاً لانهم لم يألفوا التنظيم العسكري واكتفيت بثلاثة آلاف منهم ففرقتهم بين الاورط العثمانية المختلفة »

وقال ايضاً « ان الفيلق الخامس من الجيش العثماني اي فيلق دمشق كان رجمياً في امياله والفيلق الرابع فيلق ارضروم عزم اولاً ان يزحف على الاستانة ثم عدل عن ذلك وما لا الرجميين لكن الفيلقين بعيدان لا يخشى منها وانما يخشى من الفيلق الثاني فيلق ادرنه لثلاثة اسباب الاول انه لم يكن ميالاً الى جمعية الاتحاد والترقي في اول الامر وقومندانه السابق ناظم باشا لم يكن بالصديق للجمعية وقد حظر على ضباطه الانتظام في الجمعيات السياسية . والثاني انه كان مغناطيساً من الفيلق الثالث في ما يظن لان ضباط الفيلق الثالث حملوا مجلس المبعوثان على اسقاط كامل باشا لجعله ناظم باشا ناظراً للحربية . والثالث انه كان اكثر عدداً من الفيلق الثالث »

ولذلك ظن البعض ان الفيلق الثاني يخرج لمقاومة الفيلق الثالث وصدر عن الاستانة وشاع فيها يوم الاحد انه فعل ذلك وقهر الفيلق الثالث وذكرت اسماء الضباط الذين قتلوا . ولكن الاشاعة كانت من جملة الاراجيف الكاذبة والحقيقة ان الضباط الذين من حزب تركيا

الفتاة كانوا حرموا عبد الحميد من معاضدة ضباط الفيلق الثاني لهُ وحوَّلوهم لمعاضدة الفيلق الثالث . ولم يكن هؤلاء الضباط مقتنعين بان عبد الحميد هو الذي حرَّك الفتنة ودبَّر المذبحة ولكن رجال الجمعية ابانوا لهم انهُ استفاد من الفتنة ولو لم يدبرها ولم يقاصص القتلة المتمردين بل تودَّد اليهم فلم يسعهم ان ينكروا ذلك فلحال انحازوا الى الفيلق الثالث . ولم يطلب منهم شوكت باشا ان يجندوهُ لانهُ كان يخشى من انتقاض البلغار فاراد ان يبقوا حيث هم لحفظ الحدود ولم يجندوهُ الاَّ بلواء من المشاة ولواء من الفرسان ولكنهم فعلوا ما هو اهم من ذلك وهو انهم أكَّدوا لهُ انهم يحمون جناحيهِ وانهم معهُ قلباً وقالباً

فامن شوكت باشا على جناحيهِ وساقتهِ ولم يبقَ شيء حسب الظاهر يخشاهُ ولكن بقي شيء اشدُّ هولاً من الالبان واليونان والصرب والبلغار وجنود ادرنه وجنود الاستانة وكل خصم عنيد وهو الخوف من ان ينتقض جنودهُ عليهِ اذا دخل بينهم جواسيس عبد الحميد وحركوا فيهم الغيرة الدينية فتحوَّط لذلك بان بثَّ بين الجنود ضباطاً بثياب الجنود (الانفار) . وهم الضباط الذين هربوا من الاستانة فاناط بهم منع جواسيس رجال الفتنة من ان يدخلوا بين الجنود ويفتنوهم عليهِ . وقد كان في مقدمة الجيش اكثر من خمسين ضابطاً متزيين بزي الانفار لهذه الغاية

قال المؤلف واذا ذكرنا فضل شوكت باشا في انقاذ الحكومة الدستورية لا ننسى اخوانهُ الضباط وكل اعضاء جمعية الاتحاد والترقي وكل رجال الملكية في سلانيك الذين تطوعوا في الجيش لانقاذ البلاد ولا سيما بطلي الدستور انور ونيازي اللذين كانا في طليعة رافعي راية العصيان على الحكومة الحميدية السابقة

وقيل الزحف العام ارسلت مدينة متاستر الى ناظر الداخلية تلغرافاً تقول فيهِ « ان حوادث استانبول اثَّرت تأثيراً سيئاً جدّاً في الجيش والشعب واهاجت الافكار . فالعساكر والالبانيون والسيميون والسلون كلهم قلبٌ واحد ورأي واحد على مقاومة ما يعدُّونهُ ضربة قاضية على الدستور . واذا لم يأتهم بالتلغراف ان مجلس المبعوثان لا يزال يجتمع برئاسة احمد رضا بك وان الوزارة تألفت حسب الدستور فقد اقسموا كلهم ان يزحفوا على استانبول وانهم ينتظرون الجواب حالاً »

ثم فصَّل المؤلف كيفية الزحف على الاستانة ممَّا لا غرض لنا باستيفائهِ وعاد الى ذكر حوادث الاستانة بين ابتداء الفتنة ووصول العساكر الى ضواحيها كما سنبينهُ في الجزء التالي